

المحاضرة الثالثة

مبادئ النمو

هناك عدّة مبادئ وقوانين أساسية وثابتة تحكم النمو، فهو ليس عملية عشوائية، وتعدّ هذه المبادئ مهمّة؛ لأنها تلقي الضوء على النمو النفسي وتفيد في العملية التربوية وفي العلاج النفسي، هذه المبادئ هي

١- النمو يسير عبر مراحل متواصلة مرتبطة معاً، لكل مرحلة سمات خاصّة ومعينة، وتتداخل المراحل فيصعب تحديد متى انتهت مرحلة وبدأت الأخرى، هذه المراحل مهمة في تحديد ما إذا كان النمو يسير بتقدّم أو تأخّر بحسب خصائص كل مرحلة.

٢- النمو عملية مستمرة بالتدرّج، تتضمّن التغيير الكمي والعضوي والكيفي والوظيفي بكل نواحيه، حيث إنّ النمو الطبيعي هو عملية مترابطة ودائمة منذ بدء الحمل، وكل مرحلة تتأثر فيما قبلها، فيكون النمو دائماً لا يتوقّف، ويكون التغيير كمياً كظهور الأسنان واكتمالها، أو كيفياً أي بطريقة وتدرّج معين، كأن يحبو الطفل قبل أن يمشي، ويمشي قبل يركض، ونوعياً كالتطوّر الذي يحصل للجهاز العصبي ووظائف الجسم، ولو حصلت مشكلة في مراحل العمر الأولى كسوء التغذية مثلاً، فإن هذا سيؤثر تأثيراً ملحوظاً في المراحل اللاحقة من نمو الإنسان.

٣- للنمو سرعات مختلفة تتباطأ وتتسارع وتختلف، فهو ليس ذا سرعة مطّردة، فلا تنمو كل الأجزاء معاً، ويكون هناك توافق بين الإسراع والتأخّر في نمو الطفل ووزنه ومعدّل الذكاء لديه، وبين النضج الانفعالي والتوافق الاجتماعي وغيرها، وقد يزول هذا التوافق تماماً لو نما الإنسان بالسرعة نفسها، فيقال إنّ الإنسان لو نما بالسرعة التي ينمو فيها الجنين ما قبل الميلاد، لكان معدّل طول الإنسان في مرحلة الرشد يتعدّى الأربعمئة متر! وهنا تظهر فائدة التسارع والتباطؤ في عملية النمو.

٤- لكل مرحلة من مراحل النمو سمات ومظاهر خاصّة، فسلوك لعب الطفل وهو رضيع يختلف تماماً عن أساليب ونوعية لعب الطفل في عمر ما قبل المدرسة.

٥- هناك فروق فردية واضحة في النمو بين الأفراد، ولا ينمو طفلان من الأسرة نفسها بالطريقة نفسها تماماً، ولكن يتوزّع الأفراد توزيعاً تكرارياً معتدلاً حول متوسط نظريّ وخصائص مشتركة في الغالب.

٦- يسير النمو من العموميات إلى الخصوصيات، ومن الكليات إلى الأجزاء، فمثلاً يستجيب الطفل في البداية استجابات عامّة، ثم بعد ذلك تصبح أكثر دقّة، ويتحرك بدايةً بكل جسده ثم بعد ذلك يتحرك بأطرافه.

٧- يسير النمو طويلاً من الرأس للقدمين، فينمو الدماغ أولاً، ثمّ يتقدّم تدريجياً للمناطق الأبعد عن الرأس، فيحرك الطفل عضلات الجذع مثلاً قبل تحريك عضلات اليدين والقدمين.

٨- النمو يتأثر بالظروف الخارجيّة كالغذائية والصحة والإشعاعات وغيرها، وبالظروف الداخليّة كالأساس الوراثي.

٩- يمكن التنبؤ بالاتجاه العام للنمو، ولأنّ النمو يسير في نظامٍ معينٍ وفي تتابعٍ، فإن من الممكن التنبؤ بالشكل العام الذي يتوجّه نحوه نمو الفرد وسلوكه، فإذا أظهر الطفل علامات التأخر الاجتماعيّ أو التحصيليّ فإنه من الممكن التنبؤ بعد عرضه لاختبارات ومقاييس صادقة أنّه قد لا ينجح في إتمام الدراسات العليا في حال سار على النهج نفسه.

مراحل النموّ في علم النفس

من أهمّ فروع علم النفس ما يعرف بعلم النفس التنمويّ (علم نفس النموّ)، وهو العلم المختصّ بدراسة مراحل نمو الإنسان، ودراسة المراحل العمريّة المختلفة التي يمرّ الإنسان بها من طفولة، ومراهقة، وشباب، وشيخوخة، ويدرس هذا العلم سلوكيات الإنسان خلال هذه المراحل العمريّة، كما يدرس المؤثرات التي يتأثر الإنسان بها، وكافة الانفعالات التي قد تصدر عن الإنسان خلال حياته، ويتفرّع هذا العلم بدوره إلى العديد من العلوم الفرعيّة الأخرى والتي منها؛ علم نفس الشيخوخة، وعلم نفس الطفل، وعلم نفس المراهقة والشباب، وتقسّم مراحل نمو الإنسان بحسب هذا العلم إلى:

ما قبل الميلاد

تبدأ هذه المرحلة بالتلاقح بين الذكر والأنثى، وتستمر إلى ما يقترّب من مئتين وثمانين يوماً، وتقسّم هذه المرحلة بدورها إلى مرحلة النطفة، والمضغة، والخلق، وتعتبر هذه المرحلة بالغة الأهميّة، إذ إنّ الجنين يكون شديد الحساسيّة لأية مؤثرات قد تحدث له، وبعد هذه المرحلة تأتي مرحلة الرضاعة التي يعتمد فيها الطفل في تغذيته على عمليّة الرضاعة.

الطفولة

تقسم هذه المرحلة إلى مراحل فرعية منها؛ الطفل الصغير، والطفولة المبكرة، والمتوسطة، والمراهقة، وتبدأ منذ انتهاء فترة الرضاعة وتستمر إلى بداية فترة البلوغ، وهي الفترة التي تنضج فيها كافة الغدد والأعضاء التناسلية عند الإنسان بجنسيه.

الشباب

في علم النفس هناك ترادف واضح ما بين الشباب والمراهقة، إلا أن هذا المصطلح لا يحدّد بفترة زمنية معيّنة، إنّما يعرف بالخصائص التي يمرّ بها الشاب سواء كان ذكراً أم أنثى، والتي من أبرزها النشاط الكبير، والقوة العارمة.

الشيخوخة

هي المرحلة التي تصيب الإنسان كلّما تقدّم في العمر، وتُعرف بالهرم، وتُعرّف الشيخوخة بأنّها التلف الذي يصيب أجهزة الإنسان الحيويّة المختلفة كلما ازداد عمره، وقد أصبحت هذه المرحلة مثار اهتمام العلماء المختصّين الذين جعلوا لهذه الفترة علماً خاصّاً يهتمّ بدراسة تداعياتها على كافة المستويات سواء الاقتصادية، أم الاجتماعية، أم النفسيّة، أم الديمغرافيّة.